

نحن خمسة في هذا العالم

نحن خمسة ليس لنا سادس ، قد افترقنا منذ أكثر من مليون أو مليوني سنة . ولكننا ما زلنا نذكر قرابتنا وندلّ عليها بالوجوه وسائر الأعضاء ، وكذلك بالأخلاق والاتجاهات الذهنية أو العاطفية .

نحن البشر ، ثم الشمبزي ، ثم الغوريلا ، ثم الأورانج ، ثم الجييون . وليس لنا سادس . نحن خمسة نتسم بوجوه بشرية وبأذنان متقلصة قد اندغمت في ظهورنا حتى صارت لا تبرز كأننا لم نكن قط بأذنان . وقد عشنا آلاف القرون على الأشجار . ونحن البشرع الغوريلا قد تركنا الأشجار ونزلنا على اليابسة . ولكن صغار الغوريلا لا تزال إلى الآن ، إذا أظلم الليل ، تصعد إلى غصون الشجر وتنام عليها . أما آباء هؤلاء الصغار فتبقي على الأرض تحت جذوع الشجر ولا تصعد . أما الشمبزي فلا يزال يساوى بين الشجر والأرض ، ساعة هنا وساعة هناك . أما الجييون فلا يزال يتعصب للشجر ولا يكاد يتركه . ولكن الأورانج ينزل من وقت لآخر ويسير على الأرض . ونحن والجييون طرفان . نحن نتعصب للأرض ولا يكاد أحدنا يفكر في الصعود إلى أغصان الشجر سوى صبياننا للعب والعبث . وفي الطرف الآخر الجييون الذى يتعصب للشجر . وهو بهلوان يذرع الغصون بذراعيه بنفس السهولة التى نسير نحن بها على الأرض . حركته تتبلور فى ذراعيه كما تتبلور حركتنا فى ساقينا .

والجييون هو صرخة نائية فى قرابتنا التطورية . ولكن هناك ما هو أنأى . ذلك أننا قبل أن نكون خمسة كنا عشرات بل ربما كنا مئات نتفوق فى القارات القديمة ونعيش على الأشجار . وكانت أجسامنا صغيرة ؛ لأن الحيوان الضخم يجد أن الغصون لا تتحملة ولذلك سرعان ما ينزل إلى الأرض . ألا ترى أن اثنين من هؤلاء الخمسة ، وهما الاسان والغوريلا ، قد تركا الشجر

واستقر أحدهما على الأرض وكاد الثاني أن يستقر؟ والأورانج يكاد يساوي الانسان في الثقل، ولكنه لا يزال يلتزم الشجر لأن قديمه لا تليقان للمشي، كما سرى.

قبل نحو عشرين أو ثلاثين مليون سنة كنا قد بدأنا حياة جديدة على هذا الكوكب. وكنا قد اهتمدنا إلى اختراع جديد يمتاز به على تلك الزواحف الضخمة التي كانت وباء على العالم. ذلك أننا كنا نلد ولا نبيض. فكانت الحراسة ثم العناية بالأطفال كبيرتين. وفي الوقت الذي كانت تنقرض فيه الزواحف لأن بيضها لا يجد الحراسة كنا نحن نعيش وننازعها البقاء لأننا كنا نعى بالأطفال ونحرسها.

وكنا صغاراً في الحجم نترجح من وزن الفأر إلى وزن الثعلب. وقد لجأنا إلى الأشجار كي نفرّ من هذه الزواحف الضخمة. وكانت خفة أجسامنا تساعدنا على الفرار. حتى إذا بدأت هذه الزواحف في التناقص ثم الانقراض، شرع بعضنا يجد أن الأرض مأمونة وأنه يستطيع النزول حيث يسعى في حرية والطلاق، فكانت أسلاف الحيوانات الجديدة المتخصصة كالقيلة والخيل والكلاب والبقر.

أما نحن فبقينا صغاراً في حجم الفأر أو القط. ولا يزال الليمور في أيماننا ثم الطرسير، يصرخان بنا عبر الملايين من السنين إلى الأصل الوضع الذي نشأنا منه. وكلاهما من حيوانات الليل التي تفتح أعينها في الظلام وتحاول النظر في الغبشة والعمّة. ولذلك تجمعت العينان عندهما في الوجه دون الصدغين كما هو الشأن في سائر الحيوان. وإلى الآن نرى أن البومة والوطواط قد اجتمعت العينان لكل منهما في الوجه. فكل منهما ينظر بعينين في وقت معاً، في حين أن سائر الحيوانات النهارية، أي التي تسعى في النهار طيراً كانت أو لبونات، تقنع بالرؤية بعين واحدة في الصدغ.

ولهذا السبب نجد بيننا وبين البومة وكذلك الوطواط شهاً مزججاً نكرهه وننفر منه. وأصله هو هذا الجمع بين العينين في الوجه فنحن الخمسة وكذلك الطرسير والليمور ثم كذلك البومة والوطواط، من حيوانات الليل، قد احتجنا إلى الدقة وإحكام الرؤية، فجمعنا العينين في الوجه حتى ننظر الأشياء بهما معاً لا بعين واحدة.

والاقامة على الشجر نسندعى اليقظة في الليل كثيراً . ويبدو أننا أسرفنا في هذه الاقامة حتى صار السعي في الليل دون النهار عادتنا . فكان هذا التخصص في النظر ، في حين أن سائر الحيوانات ، أسلاف الكلاب والقطط والفيلة والبقر ، تركت الشجر قبل أن تخصص . فبقيت عيونها جانبية أي تبقى كل منها « أعور » ينظر بعين واحدة كما كانت تفعل الزواحف الكبرى . أما نحن فلم نترك الشجر إلا بعد أن تخصصنا . ومع ذلك لم يترك الشجر تماماً غيرنا نحن البشر . أما سائر الأربعة فلم تتركها تماماً إلى الآن . حتى الغوريلا لا تزال تسمح لأولادها بالتسلق والنوم على الغصون في الليل . وهناك ما يرجح أن جميع اللبونات (التي ترضع أطفالها) نشأت أولاً على الشجر ، وكانت صغيرة الأحجام تتحملها الغصون في تنقلها ووثبها . ولم يكن مفروضاً من هذا ؛ لأن الزواحف الكبرى ، التي كان العالم موبوءاً بها في كل مكان . كانت تحول دون ظهور اللبونات على الأرض . ولا تزال الأحافير القديمة التي ينتمي إليها الفيل والفرس صغيرة الحجم . فالفيل القديم ، وقد وجد في الفيوم ، لا يزيد على حجم الحمار . والفرس القديم ، وقد وجد في أمريكا ، لا يزيد على حجم الفأر . أي إن اللبونات الضخمة كانت في الأصل صغيرة لأنها كانت تعيش على الشجر . ولكنها لم تبق ، مثلنا ، المدة الكافية لأن تجمع عينيها في وجوهها ولأن تخصص أيديها للتناول .

ونزلنا صغاراً من الشجر ، وقد كسبنا من الاقامة عليه عيني الوجه وكذلك اليد . فلما استقر بنا المقام على الأرض كبرت جثتنا كما كبرت جثة الغوريلا الذي لا يصعد على الشجر سوى صغاره . وأيضاً ، لأننا صرنا نتناول باليد ، استغنيا عن الذنب . بل ربما كنا استغنيا عنه قبل النزول إلى الأرض ؛ لأن هذا هو الشأن حتى في الحيتون الذي يسلك سلوك البهلوان على الغصون ، والذي نظن أن لذلك كان يجب أنه يحتاج إلى الذنب . ولكن المرجح أن الأيدي ، قد قامت مقام الأذنان حتى ونحن على الشجر .

والفرق بيننا وبين الأربعة الأخرى أننا لم نتخصص مثلها على الاقامة في الشجر ، حتى الغوريلا التي تركت الشجر الآن قد تركته متأخرة ؛ لأن قدمها لا تصلحان للسير كما تصلح أقدامنا . ولأن إبهام القدم يواجه الأصابع ولا يستوى معها في صف كما هي الحال عندنا .

وأبعد الخمسة منا . وهو الصرخة النائية لحياة قديمة اشتركنا فيها ، هو الجييون . وهو آسوى يعيش في الأقاليم الشرقية الجنوبية من آسيا وكذلك في سومطرة وبورنيو . وهو يختلف عن الأربعة الأخرى من حيث إن له صوفاً بدلا من الشعر الذى نتم به . وكذلك يتم هو بتضخم اسنى كما هو الشأن في بعض القردة . ولكن من الباحثين من يقول إن هذا التضخم الاسنى عام بين الخمسة حتى الانسان . وإن الفرق بينها درجى فقط . وبشرته سوداء مثل الزنوج . ومن هنا يجب أن نشك في قيمة الضوء من حيث إنه الأصل في البشرة السوداء . لأن هذا الجييون يكسو بشرته صوف يحميها من الضوء . ومع ذلك هي سوداء . ولا بد أن هناك أسباباً أخرى لسواد البشرة عند زنوج البشر وعند الجييون .

والجييون هو أصغرنا جميعا من حيث الوزن والقامة . فان قامته لا تزيد على تسعين سنتيمتراً . وهو ضامر البطن . ونحن الأربعة ، بالمقارنة به ، نعدّ مستكرشين . وهو أرفعنا في الانتقال بذراعيه كما نحن أرفع الخمسة في الانتقال بالساقين . وهو حين يتعلق بالغصون لا يستعمل إبهامه ، بل أحيانا يقنع باستعمال إصبعين للتعلق كأن إصبعه خطاف . ولذلك هو لا يقبض على الغصن ولكنه يتعلق بانحناء خطافى في الأصابع . وأنيابه طويلة مؤهلة بخلاف الحال عند الأربعة الأخرى ؛ لأن الأنياب عندها قصيرة مسحاء لاتنتهى بآبرة حادة . وهو ألوف ، ولكنه عندما يعاشرنا لا يتآك من الاختلاس لأن ذكاه يتجاوز أمانته .

وطنه الأعم هو الشجر الذى لا يتركه سوى ساعة أو ساعتين في النهار . وهو حين يمشى ينتصب على قدميه .

أما ثانى الخمسة فهو الأورانج الذى يعيش في سومطرة وبورنيو في الأقاليم التى يعيش فيها الجييون . هو الحيوان الانفرادى بيننا نحن الخمسة ؛ لأننا اجتماعيون نعيش كلنا جماعات إلا الأورانج فانه ينفرد على الشجرة . وأنفه وفمه يبرزان ، وشعره أهر ، ولكن لحيته بطريكية سابلة برتقالية اللون . وهو يسير على الأرض في ببطء وحذر . وهذا لان إبهام قدمه الذى يخلو من الظفر أحيانا يواجه أصابعها أى إن قدمه مثل يده . وذراعه طويلتان وساقاه قصيرتان بعكس الحال عندنا نحن البشر . وبين قواعد أصابعه أغشية .

وأصابعه لا تقبض على الغصن ولكنها تتعلق به كالخطاف كما يفعل الحبيون .
وصغار الأورانج كصغار البشر تتعلق وتتدل وتصبح وراء الأم . بل هنا
يجب ألا يفوتنا أن صغارنا نحن الخمسة تتشابه كثيراً في تفاصيل الجسم
والوجه والأخلاق .

وكل من الأورانج والحبيون يتناول الماء بيده ثم يشرب من يده أى
إنهما لا يلعقان . ودماع الأورانج لا يختلف عن دماغ الانسان إلا من
حيث الحجم .

أما ثالثنا فهو الغوريلا . ووطنه هو أفريقيا ، في الأقاليم الغيباء من الكونجيو .
وهو أثقلنا ، إذ يبلغ وزنه . . ٥٠ أو ٦٠ رطل . وهو شجرى ما دام في طفولته
وصباه ، فإذا كبر لم يكد يعرف الشجر . وهو في الوجه من حيث حركة
الأعضاء ولحظ العين بشرى السحنة . وقدمه مستوية . وهو حين يعدو يتساوى
مع الانسان في السرعة أو يكاد يسبقه . وهو حين يقعد يأكل كل ما حوله من
أوراق الشجر . ولذلك كان بطنه ضخماً كأنه بهيم . وهو يسير جماعات كل ٢٠
أو ٣٠ معاً . وعند ما يقعد ليستريح على أليتيه يضم ذراعيه مكتوفتين على
صدره . وهو ينام على ظهره أو جنبه ويتوسد ذراعه . وهو مثل الأورانج يثبت
للخصم ولا يفر .

أما الشمبزي ، وهو أقرب الخمسة إلينا نحن البشر ، فيستوى عنده الشجر
والأرض . إذ هو يتسلق كما يمشى . وهو أفريقي مثل الغوريلا . وهو ينتصب
في القامة أو يكاد . ولذلك يتعلم الانزلاج ويمارسه في طرب وخفة . ويعيش
مثل الغوريلا في غابات أفريقيا الغربية . وهو يسير جماعات كل منها نحو ثمانية
أو عشرة . ويأكل الفواكه ، ولا يبالي أن يعيش بجوار القرى ، ولكنه إذا أحس
أن أحداً يتجسس عليه ترك مكانه إلى آخر . ولا يزيد وزنه على مائة رطل .
وهو بالمقارنة إلى الأورانج يعد انبساطياً يفرح بالاجتماع ويلعب وينشط إلى
المرح بخلاف الأورانج الذي يعد انطوائياً يعيش منفرداً ولا يكاد يعرف معنى
للمؤانسة . والشمبزي سريع إلى التعلم ؛ فهم يتناول طعامه بالمعلقة ، وعند ما
يعاشرنا يكتسب منا أخلاقاً بشرية ؛ فان الندم يدو عليه عند ما يخطئ
عمداً أو عفواً . ولكنه عند ما يسن يؤثر الافراد ويتجنب الزاح . وكثيراً ما
يصلع ، فيتخذ سحنة بشرية بهذا الصلح .

أما نحن البشر فنختلف الاختلاف الأكبر عن هذه الأربعة المتقدمة من حيث إن حجم الدماغ عندنا أكبر مما هو عندها . وأيضاً من حيث إن إبهام اليد تواجه الأصابع ولذلك نحسن القبض والتناول أكثر منها . وقد تركنا الشجر تركاً تاماً ، ولا يقارننا في هذا سوى الغوريلا . والقدم عندنا مقنطرة تمشي على أرساغنا ثم نندفع فوق أصابعنا ، في حين أن أقدام الأربعة الأخرى مسطحة . ولذلك لا يسهل عليها المشي كما يسهل علينا . لكن أذرعنا لا تزال طويلة ، مما يدل على أننا عشنا كثيراً على الشجر . ودماغنا يكبر دماغ الغوريلا بثلاثة أضعاف . ويجب ألا ننسى أن القامة المنتصبة العمودية عندنا هي التي هيأت لنا حمل هذا الدماغ الثقيل ؛ لأننا نحمله حملاً عمودياً فلا يرهقنا . ولم نكن نستطيع أن نحمله لو كنا نمشي على أربع . والفم والأنف يتراجعان عندنا ؛ لأن اليد تقوم بالتناول بدلاً من الفم . والأنف أصبح صغير القيمة لأن العين جعلتنا نستغنى بالنظر — أو نكاد — عن الشم . وزيادة الحجم في نظر الطبيعة ليست ذات قيمة كبيرة ، كما ترى هذا إذا اعتبرت الكلاب ؛ فإن بينها كلب سان برنار الذي يزيد وزنه على ثلاثين رطلاً ، وكلب لولو الذي قد لا يبلغ رطلاً أو رطلين . ودماغنا ، وهو أعظم ما يميزنا من هذه الأربعة الأخرى ، يزيد ثلاثة أضعاف ما هو عند الغوريلا أو الأورانج أو الشمبزي . وليس هذا شيئاً عظيماً ؛ لأننا والأورانج سواء من حيث التشريح المنحى بلا أدنى اختلاف .

ولنا جميعاً وجوه متشابهة . فنحن الخمسة نبدو للعالم بوجوه تتشابه لأن العينين تقاربان ، ولنا أيدٍ للتناول . وجميعنا قد استغنينا عن الأذنان ، ولكن ما تبقى من الذنب عندنا أكبر مما تبقى منه عند الأربعة الأخرى ، وجميعنا نمشي على أقدامنا بفروق . بعضنا قد ترك الشجر بعض الوقت ، وأحدنا (نحن) قد ترك الشجر كل الوقت .

قال هوكسلي : « إن الإنسان يشبه هذه الأربعة الأخرى ، كما يشبه كل واحد منها الآخر . وهو يختلف عنها كما يختلف كل واحد منها عن الآخر » ثم يقول : « إن الفروق الجسمية التي تفصل الإنسان من الغوريلا والشمبزي ليست عظيمة إلى الحد الذي تبلغه الفروق بين القردة العليا والقردة الدنيا » . والفروق بين البشر كبيرة ؛ فإن أنف الزنجي الأفطس وأنف السويدي

الأشم يختلفان اختلافا عظيما . وكذلك بشرة الزنجي السوداء وبشرة الأوربي البيضاء قد أحدث الاختلاف بينهما استعباد الناني للأول آناً من السنين . والصيني أملط أو يكاد ، والأوربي شعراى . وأحيانا نجد على بعض الأجسام البشرية زغبا صوفيا ، يكثر في فرنسا وإيطاليا بين الفتيات له لسة حريرية جاذبة وحبذا الانسان يعود فيكتسى بهذا الصوف الناعم ويستغنى به عن الملابس . وبعض هذه الفروق يمكن تعليله بالمناخ . مثال ذلك أن السويدي أو النروجي الذي يعيش في مناخ بارد بالقرب من القطب يجب أن يكبر أنفه وتضييق المسالك الداخلية فيه حتى لا يفجأ الهواء البارد رثيه . أما الزنجي الذي يعيش في أفريقيا الحارة فينفطس أنفه وتتسع مسالكه الداخلية حتى يجتازها الهواء بسرعة وبلا عائق . والهواء الحار يتمدد فيحتاج الزنجي كي يحصل على حاجته من الاكسيجين إلى مقدار من الهواء يزيد على المقدار الذي يحصل عليه الأوربي .

ولكن مع جميع هذه الاختلافات بيننا نحن البشر ما زلنا نوعاً واحداً يتفرع إلى سلالات عدة يتم بينها التلاقح ولا يؤدي إلى نسل من « البغال » العقيمة .

والفروق بيننا وبين القردة الأربعة الأخرى كبيرة . وأهمها بالطبع هو المخ . ولكن هذا المخ ما كان ليصل إلى ضخامته الحاضرة بل ما كان لينمو في الذكاء لولا اللغة التي جعلت التفكير الدقيق ممكناً ولولا اليد التي جعلت الحضارة ممكنة بما لها من إبهام يجيد تناول . فميزتنا الكبرى على القردة الأربعة الأخرى هي اللغة ، واليد .

بيلام موسى